حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٦ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠١٨)

http://www.aafu.journals.ekb.eg

(دورية علمية محكمة)

جامعة عين شمس

كلية الآداب

نظريات الثورات الفلاحية الحديثة
دراسة مقارنة

رافع الخريشه *

قسم علم الاجتماع – كلية العلوم الاجتماعية– جامعة مؤتة، الأردن

المستخلص:

هذا البحث هو محاولة تحليلية مقارنة لوجهات نظر كل من بارنغتون مور، وأريك وولف، وجول مجدل، وثيدا سكبول، وجيمس سكوت، وجيفري بيج في الثورات الفلاحية الحديثة، وقد تم استعراض وتقييم ما كتبه هؤلاء في الإجابة على أربعة أسئلة رئيسة، وهي: (١) ما هو البناء الاجتماعي والوضع التاريخي الذي يقود أو يدفع الفلاحين للثورة؟ (٢) ما هي فئات الفلاحين الأكثر قابلية للانخراط في الثورة، ولماذا؟ (٣) ما هو الدور الذي يلعبه التنظيم السياسي في الثورات القائمة على مشاركة الفلاحين؟ (٤) هل تخلق الرأسمالية الإمبريالية الظروف لاندلاع الثورات الفلاحية، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف؟ هذه الأسئلة ستنظم مسار البحث، وتقود للحجج الرئيسة لهؤلاء الدارسين والاختلافات الحادة بينهم.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

مقدمة

يعود بيان أهمية ومركزية الفلاحين في الثورات الحديثة إلى "بارنغتون مور" B. Moore في كتابه الأصول الاجتماعية للديكتاتورية والديمقراطية. ثم لم تلبث الدراسات التي تدور حول الفلاحين في الثورات في مختلف مناطق العالم وخاصة العالم المتخلف أو النامي أن تتابعت فكان كتاب "وولف" E. wolf المعنون بـــ "الحروب الفلاحية" في القرن العشرين. ثم كتاب "جول مجدل" J. Migdal المعنون بـــ "الفلاحون والسياسة والثورة" عام ١٩٧٤، وكذلك كتاب "جفري بيج" J. Paige المعنون بـــ "الثورة الزراعية، الحركات الاجتماعية والزراعة التصديرية في العالم المتخلف" عام ١٩٧٥. وكتاب "جيمس سكوت" المعنون بـــ "الاقتصاد الأخلاقي للفلاحين" عام ١٩٧٦، وأخيرا كتاب "سكوكبول" Theda Skocpal المعنون بـــ "الدول والثورات الاجتماعية" عام ١٩٧٩.

وسنتناول في هذا البحث الثورات الفلاحية في ضوء الدراسات السابقة وكيف أجاب هؤلاء الدارسين على الأسئلة التالية:

١-ما هو البناء الاجتماعي والوضع التاريخي الذي يقود أو يدفع الفلاحين للثورة ؟

٢-ما هي فئات الفلاحين الأكثر قابلية للانخراط في الثورة، ولماذا؟

٣-ما الدور الذي يلعبه التنظيم السياسي في الثورات القائمة على مشاركة الفلاحين؟

٤-هل تخلق الرأسمالية الإمبريالية الظروف لاندلاع الثورات الفلاحية، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف؟

هذه هي الأسئلة الأساسية التي ستوجه مسار هذا البحث وسنحاول بيان الإجابات التي قدمها الدارسين المذكورين للأسئلة السابقة، وكذلك سنبين نقاط الاتفاق والاختلاف فيما بينهم، وسيتم تسلسل الإجابة عن الأسئلة السابقة بالشكل التالي:

١- ما هو البناء الاجتماعي والوضع التاريخي الذي يقود أو يدفع الفلاحين للثورة ؟

لقد تم التأكيد على أهمية ومركزية الفلاحين في الثورات الحديثة لأول مرة في كتاب "بارنغتون مور" والذي جاء بعنوان "الجذور الاجتماعية للديكتاتورية والديمقراطية"، فالجملة الافتتاحية للفصل المعنون "الفلاحين والثورة" تعلن بوضوح تام "أن عملية التحديث بدأت بثورات لقيت الفشل، وتبلغ هذه الثورات ذروتها خلال القرن العشرين بثورات فلاحية ناجحة" ولم يعد من الممكن الآن أن يقال بصورة جدية أن الفلاح ليس أكثر من "موضوع تاريخي" أو شكل من الحياة الاجتماعية تمر الأحداث والتغيرات التاريخية فوقة ولكنها لا تسهم بشيء في دفع حركة هذه التغيرات (مور، د.ت: ٢٥٣) وانظر،(Smith, 1984).

وعندما كان "مور" منخرطا في عمله العظيم هذا خلال الخمسينات وأوائل الستينات، لم تكن الماركسية ولا العلوم الاجتماعية الأرثوذكسية تعير اهتماماً للطبقات الزراعية Agrarian Classis في عملية صناعة العالم الحديث. فلقد كان ينظر للفلاحين على أنهم معاقل للنزعة المحافظة والتقاليد وكل الأشياء التي يجب أن تجتثها البرجوازية الثورية أو البروليتاريا الثورية أو الصفوات التحديثية Modernizing Elite. ولكن عندما انخرطت الولايات المتحدة منذ منتصف الستينات في محاولة القضاء على الثورة الفيتنامية، فلقد انبهر الدارسون بالإمكانات الثورية لدى الفلاحين وخاصة في بلدان العالم الثالث.

إن أكثر ضحايا التحول إلى الصناعة كما لاحظ "مور" هم سكان المناطق الريفية، حيث ضاع منظورهم إلى الحياة بشكل مستمر مع تكون مفاهيم جديدة عن نظام الحياة الجديد؛ إذاً كان أهم أهداف كتابة توضيح الأدوار الأساسية التي قامت في طريق وصول الطبقات الريفية إلى التحديث، حتى ولو لم تكن ذات فائدة في عملية التحول. ولعل ذلك كان السبب في أن العنوان للكتاب كان " السيد والفلاح يصنعون العالم الحديث"

ومن المستحيل هنا بل ومن المجحف بحق "مور" أن نحاول وضع كافة الحجج والمبادئ المعقدة والمفصلة التي تضمنها كتاب مكون من خمسمائة صفحة في هذا الحيز الضيق. وما يهمنا هنا هو ذلك الجزء المتعلق بالفلاحين.

وعند مور هناك ثلاثة طرق رئيسية بديلة إلى العالم الحديث، وتتميز كل طريقة بأشكال اقتصادية وسياسية متباينة، وكان لكل منها وقعة الثوري على الأنظمة الاجتماعية التقليدية. ويهمنا هنا الطريق الثاني للوصول إلى العالم الحديث عند "مور" فقد ضمنه وجود طبقة برجوازية ضعيفة من خلال الشيوعية (مور، د.ت: ١٠). لكن في هذه الحالة كان الدور الرئيسي الذي لعبته أكثر من الدور الخاص بطبقة أصحاب الأراضي. وقد وضح ذلك في نفوذ البيروقراطية الزراعية في روسيا والصين، حيث مالت إلى أن تكون معيقة للتقدم التجاري في الريف وفي التحول إلى التصنيع، ولهذا بقي الفلاحون باعتبارهم قوة كبرى، بل ووجد ارتباط قوي بينهم وبين الملاك في الأنظمة التي تهيمن عليها تلك البيروقراطيات الزراعية. وقد ترتب على استمرار الفلاحين من حيث العدد والقوة في كل من روسيا والصين أن جعل هاتين الدولتين عرضة لثورات الفلاحين. وهذا ما حدث عندما وجدوا أنفسهم عرضة لضغوط اقتصادية جديدة، بالإضافة إلى الحرب حيث قامت " ثورات الفلاحين " بالإطاحة بالنظم القديمة. وما يدعو للسخرية هنا أن الفلاحين أنفسهم قد أصبحوا الضحية الأساسية لهذا التحول في الأنظمة الشيوعية؛ وهنا نجد أنه في كلا

النظامين الرأسمالي والشيوعي كان من يدفع ثمن التحول هو الفلاح (مور، د.ت: ١٠-١١).

وأشار "مور" إلى أن ثورات الفلاحين تستخدم لتمهيد الطريق إلى الشيوعية والثورة الصناعية الآتية من أعلى وتجعل منهم الضحايا الأساسين، ثم لاحظ "مور" انطلاقا من هذا المدى البعيد للمناقشة؛ أنه في قاع كل أشكال التصنيع يوجد منذ القدم ثورة من أعلى يمثلها عمل الأقلية العنيفة Ruthless Minority ، وأن ما يفند فكرة التمييز بين الثورات تحليلات "مور" سواءً الآتية من أعلى أو أسفل هو أن التصنيع في ألمانيا وروسيا قد قام على وسائل متعددة؛ والتي تجتمع معاً لتدعم الحقيقة التي ترى أن السبل العديدة المختلفة التي تؤدي إلى العالم الحديث تعود إلى نتائج نظامية مختلفة جداً يطلق عليها الديمقراطية الرأسمالية، والفاشية والشيوعية. ولهذا يصبح من الضروري أن يصاحب مجموعة الثورات العديد من النتائج النظامية الواسعة.

أما "سكوكبول" والتي ألهمتها الحرب الأمريكية الفيتنامية في السبعينات والتي كانت منخرطة في النشاط السياسي الطلابي المناوئ لتلك الحرب أثناء دراستها كطالبة دراسات عليا إذ تقول " لقد أثارت تلك الأوقات اهتمامي في فهم التغيرات الثورية Revolutionary وإنه خلال تلك السنوات نضج إيماني والتزامي بالمُثل الاشتراكية" (Skocpol, 1979: xii).

ولقد كانت رسالة "سكوكبول" لنيل درجة الدكتوراه ترتكز على المقارنة بين الثورات الفرنسية والروسية والصينية، تلك الرسالة التي أصبحت تحمل عنوان "الدول والثورات الاجتماعية".States and social revolutions وظهرت الأزمة السياسية في البلدان الثلاث لأن الأنظمة القديمة Old regimes لم تكن قادرة على إنجاز ابسط الإصلاحات الأساسية، وبسبب الضغوطات الخارجية من بريطانيا وألمانيا واليابان على التوالي. إن عدم المرونة والضغوط الخارجية كانتا العنصر المشترك بين كل الثورات الناجحة حتى يومنا هذا؛ وبالطبع في كل من فرنسا وروسيا والصين.

وتفرق "سكوكبول" هنا بين الأقنان Serfs الذين يعملون في الممتلكات الكبيرة large estate وأولئك الذين يعملون قطع أراضيهم الخاصة. والأخيرون كما ترى هم الأكثر قابلية لأن ينتظموا أنفسهم وان ينخرطوا في الثورة. وهكذا فإن المقولات Propositions في نظريتها في الثورة هي، ١- التهديد الخارجي ٢- عدم مرونة الدولة وضعفها ٣- مجتمع مستقل نسبياً وأناس مستاءين من الوضع ٤- عصيان فلاحي. وتلخص "سكوكبول" في كتاب جديد لها عن الثورات الاجتماعية في العالم الحديث، نظريتها على النحو التالي:

١-إن تنظيمات الدولة ذات أهمية مركزية للثورات الاجتماعية، لأن الثورات تحدث فقد عندما تنهار break down القوى الإدارية للدولة.

٢-الإطار الدولي التاريخي عامل حاسم لأنه عادة ما يسرع من عملية خلق الأزمة والانهيار.

٣-ضرورة توفر مدخل Approach بنيوي غير طوعي – Non Voluntarism وذلك لأن الفعل القصدي أو الغائي Purposive لوحدة لا يخلق وينظم الثورة – فلا

فائدة ترجى من محاولة تفسير الثورات بالاستناد إلى علم النفس أو المصالح الطبقية أو القيادة الأيدولوجية (Skocpol, 1979;163؛skocpol,1994).

وكما لاحظنا سابقاً فإنَ "سكوكبول" ترفض عاملاً ينظر إليه على أنه عامل مركزي وأساسي في بعض النظريات عن الثورة، ألا وهو عامل الهيمنة الأيدولوجية Ideological Hegemony. فهذه الهيمنة عادة ما تكون مهمة في المجتمعات ما بعد الثورية. إلا أن المفهوم كما ترى "سكوكبول" لا يقدم لنا مفتاحاً تنبئيا سواءً في حدوث الثورات أو النشاطات التنظيمية للثوريين فيما قبل الثورة. إن تحليلها يركز على الأهمية الواضحة للاستيلاء على السلطة السياسية بل أن تحليلها يركز على الأهمية الواضحة ليس فقط على الاستيلاء والقبض على السلطة السياسية؛ بل وأيضاً على أهمية بنى Structures الدولة في تحديد ما يترتب على الثورات من نتائج.

وتلاحظ سكوكبول أن هناك ثورات فاشلة أو غير ناجحة كما هي الحال في الثورات الإنجليزية في القرن السابع عشر والثورات الألمانية في منتصف القرن التاسع عشر. وحجتها هنا أن هذه الثورات فشلت لأن السلطة الملكية (الدولة) كانت قوية ومرنة بدرجة كافية لتواجه الضغوطات الداخلية والخارجية، وإن مزيداً من السلطة قد تم منحها للسادة ملاكي الأراضي والتي مكنتهم من مقاومة استياء وسخط الفلاحين. (Skocpol, 1979: 140). وأخيراً توضح "سكوكبول" السمات العامة والمشتركة في المرحلة ما بعد الثورية في الدول التي درستها. وهذه الخصائص، هي: الأول: خلق دولة بيروقراطية مركزية. والثاني: خسارة الطبقة القديمة العليا لسيطرتها وامتيازاتها. والثالث: تحول البناء الطبقي، ويلاحظ أنه بالرغم من أن العوامل السببية هي نفسها بالنسبة لكل الثورات، إلا أن نتائج الثورات مختلفة بالنسبة لتلك البلدان والسبب هو أن الثورات حدثت في إطار عالمي مختلف. وبكلام آخر فإن "سكوكبول" مهتمة بالتنظير عن أسباب الثورات أكثر من اهتمامها ببيان نتائجها المشتركة.

وفيما يتعلق بالنقاش الخاص بإدراك الأصول الاجتماعية فقد وافقت "سكوكبول" على تحليلات "مور" في التفرقة بين كل الطرق المؤدية إلى كل من الفاشية، والشيوعية في العالم الحديث باعتبارها واحدة من الأسس التي تم إرساؤها، وتمثل بناءات نظرية قوية يمكن الاعتماد عليها في تحديد النماذج التالية:

١- نماذج البناء الطبقي الرئيسي.
٢- نماذج الصراع السياسي الثوري.
٣- الغايات السياسية النهائية للنسق السياسي.

ويرى بعض الدارسين أن وجهة نظر "سكوكبول" عن قدرات الدولة الذاتية في ضبط الاهتمامات والمصالح الاقتصادية السائدة مرتبط بمنهجها المقارن والـــذي درست من خلاله الأصول الاجتماعية للنظم السياسية، وهذا يعني أن "سكوكبول" قد أكملت ما لم يستكمله "مور" فيما يتعلق بالتفرقة بين الثورات الاجتماعية والثورات السياسية داخل إطار دراسات علم الاجتماع المقارن؛ تلك التفرقة التي تسمح لنا بالقول بأن هناك اختلافات فرعية بين الاثنين.

فالثورات الاجتماعية تكون سريعة وتؤدي إلى تحولات كبيره تأتي من أسفل. بينما نجد أن الثورات السياسية تؤدي إلى تغيير بناءات الدولة وليس البناءات الاجتماعية ولا يصاحبها بالضرورة أو تتم من خلال الصراع الطبقي وفي اتجاه الوصول إلى السبل المختلفة التي يمكن أن نحدد عن طريقتها أوجه الشبه والاختلاف بين ديناميات عمليات

التحديث. ولقد انتهت "سكوكبول" إلى تصنيف محدد بدقة. إذ اعتبرت أن فرنسا وروسيا والصين تمثل حالات إيجابية لنجاح الثورات الاجتماعية، في حين يمكن اعتبار إنجلترا واليابان وألمانيا بالمقارنة هي بلدان لم تعاني من الأزمات أو الثورات فقد شهدت بناءاتها السياسية تحولات واسعة في ظروف متشابهة وخاصة بها؛ حيث وصلت، إنجلترا وفرنسا إلى نفس النتيجة " أي الديمقراطية البرجوازية " وإن كان من غير المنصف القول بأنهما توصلا إلى ذلك من نفس الطريق.

وفيما يتعلق بأسباب الثورات فــإن "مور" يرى أن التوازن الاجتماعي وعدم التوازن يكون كافياً، لأن البؤس والتعاسة لا يكونات بالضرورة سبباً في حدوث الصراع الطبقي. بل أن "مور" يذهب إلى أبعد من ذلك إذ يقول: " أولئك الذين يعتبرون الأسواء على الإطلاق يعتبرون بوجه عام هم أخر من ينظمون أنفسهم ليجعلوا أصواتهم مسموعة. وهذا معناه أن الفقر الشديد والاستغلال لهم لا يعد كافياً للوصول الى حالة ثورية، وبتعبير أخر فإن الفقر المستشري والاستغلال لهم ومن أنفسهم ليسا كافيين لتوفير وضع ثوري(مور، د.ت:٢٢٣). وإنه من الممكن أن تصبح الطبقات المسيطر عليها والمستغلة سياسياً سلبية وقدرية وليست متحدية بفاعليه لوضعها السيئ. وتاريخياً فإنه ليس هناك أي دليل كبير لدعم وجهة النظر القائلة بأن المجتمعات الغير متساوية تتجه نحو التغير ببساطة بفضل كونها غير متساوية. وبالفعل فأن الكثير من الأمثلة يمكن اكتشافها من جماعات في قاع المجتمعات غير العادلة والتي تخضع إلى الظلم والتحكم الاجتماعي من قبل الجماعات المسيطرة، إذ تتبين الطاعة لسلطة الجماعات التي تتخذ في تنوعها وتعددها شكل الطبقات الممنوع مسها، كما هو الحال في النظام الطبقي الهندي وأيضا العبيد في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية. وهنا يود مور تأكيد البعد الأخلاقي وخاصة أفكاره المرتبطة بالعدالة والشرعية بإعتبار أن عنصر الإحساس بالعدالة غالباً ما يكون حاسماً في تنميه السبل إلى الثورات ضد الأنظمة الاجتماعية الغير عادلة طالما أنها نظم تعكس غياب الإحساس بالهوية العامة. والذي يتناوله "مور" بوصفه أحد الملامح المحددة لخصائص المجتمع.(كرو،٢٠٠٢:٧٠)

وقد سعى "مور" إلى رسم منظورات كمية وكيفية لاستكشاف عنف المواقف التي تتبع ثورات الفلاحين في فترات يتحسن فيها الوضع الاقتصادي والاجتماعي لقطاع كبير لبعض الوقت. بينما على النقيض من ذلك فإن التدهور الاقتصادي يمكن أن يكون مقبولا بدرجات لدى ضحاياه بوصفه جزءا من الموقف الطبيعي. إن أهم أسباب الثورات الفلاحية عند "مور" هو فقدان ثورة تجارية في الزراعة تقودها الطبقات العليا من أصحاب الأراضي وبقاء المؤسسات الاجتماعية الفلاحية إلى ما بعد الدخول في العصر الحديث بحيث تخضع هذه المؤسسات إلى الضغوط.

وفى مناقشة مثل هذه الحالات فإن "مور" لم يلتزم بمفاهيم خطية أو نموذجيه بل أورد أنه يمكن تعلم الكثير من دراسة أمثلة متطرفة. فتعرف الثورات الاجتماعية على أنها: تحولات أساسية جذرية للمجتمع والدولة وعادة ما تترافق جزئيا مع ثورات قائمة على أساس ثورة طبقية من الأسفل. وتختلف الثورات الاجتماعية عن أشكال الصراع وعمليات التحول الأخرى أكثر ما تختلف بتزامن أمرين هما: التحولات الاجتماعية البنيوية المقترنة بالصراع والغليان الطبقي وتطابق التحول السياسي مع التحول الاجتماعي. فالعصيان بالمقابل لا يقود إلى تحولات بنيوية وكذلك حوادث الشغب Riots. لكن لماذا تحدث الثورات وكيف ؟ وبالنسبة لــ "سكوكبول" فإن الثورات الحديثة قد حدثت

عندما تكون البلاد في وضع غير مواتي على الساحة الدولية. أما العوامل السببية فتحددها على النحو التالي:

١-طبقة ملاك أراضي منظمة تستطيع الوقوف في وجه الدولة.

٢-فلاحون مستاؤون من طبقة ملاك الأراضي ومن سياسات الدولة.

٣- قيادة غير مرنة كالأنظمة الملكية الوراثية أو أن تكون الدولة تحت ضغوط متعددة من قبل أمم أخرى (Skocpol, 1979: 4-5)

وبالنسبة لـــ "سكوكبول" فقد توفرت هذه الشروط في حالة كل من الثورات الفرنسية ١٧٨٩، والروسية ١٩١٧ ، والصينية ١٩٤٧ . ولقد ظهرت الأزمات السياسية في هذه الدول الثلاث لأن أنظمتها القديمة لم تكن قادرة على إجراء أبسط الإصلاحيات الأساسية، وكذلك بسبب أن هذه الأنظمة القديمة كانت تحت ضغوط دولية من قبل بريطانيا ، والمانيا واليابان على التوالي. أما "مور" فيعالج في الفصل الخاص بالفلاحين في كتاب الأصول الاجتماعية مسألة:"ما هي تلك البنى الاجتماعية والحالات التاريخية التي تنتج ثورات الفلاحين، وتلك تكبتها وتحول دون نجاحها" (مور، د.ت: ٤٢٦).

وكانت المساهمة التي كتبت في أوج المظاهرات ضد الحرب الأمريكية على فيتنام من قبل "أريك ودلف" Eric wolf "الحروب الفلاحيه في القرن العشرين". (وولف،١٩٧٧) وبعد ذلك تعاقبت الدراسات كدراسة "جول مجدل" الفلاحون والسياسة والثورات: الضغوطات باتجاه التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث (Migedal, 1974). وكتاب "جفري بيج" الثورات الزراعية: الحركات الاجتماعية والزراعية التصديرية في العالم المختلف (Paige,1975) وكتاب جيمس سكوت James C.Scott الاقتصاد الأخلاقي لفلاحين (Scotts,1976).

وتركز جميع الدراسات السابقة على ثورات العالم الثالث؛ فـــ "أريك وولف" يحاول الوصول إلى تعميمات عن الثورة ذات القاعدة والأساس الفلاحي على أساس تاريخ عميق لستة حالات ثورية في القرن العشرين، وهي: المكسيك، روسيا، الصين، فيتنام، الجزائر وكوبا. إما "جول مجدل" فيركز على بناء نظرية نسقية حول كيف أدت قوى عملية التحديث الإمبريالية التي طالت القرى الفلاحية وكيف استجاب لها الفلاحون سياسياً واقتصادياً. ولقد تم إيضاح هذه النظرية من خلال الدراسات الثانوية والأدلة التي جمعت من واحد خمسون دراسة عن القرى في آسيا وأمريكا اللاتينية وكذلك من دراساته الميدانية على المكسيك والهند. أما دراسة "جميس سكوت" وأراءه عن الثورات الفلاحية فهي مبنية على انطباعات تم إيضاحها ودعمها بأمثلة مأخوذة من الدراسات التي أجريت على الثورات بدءاً من الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر وانتهاء بالثورة الصينية والفيتنامية.

أما دراسة "جفري بيج" فهي الأكثر صرامة ومنهجية، فهي تجمع بين منهج التحليل الكمي للثورات الزراعية Agrarian Revolutions والمنهج الكيفي في الفترة ١٩٤٨-١٩٧٠ في ١٣٥ قطاعاً زراعياً تصديرياً، والمعالجة التاريخية المعمقة للحركات الفلاحية في ثلاث بلدان هي بيرو وانجولا وفيتنام. ولقد استخدمت كل هذه المعطيات لاختيار نظرية ضمنية في الصراع الطبقي الريفي في العالم النامي المعاصر.

وعن طريق النظر الى أعمال هؤلاء نستطيع أن نزن مقدار المعرفة التي توصلت اليها هذه الدراسات محاولا تقييم ما يقوله هؤلاء الدراسون في الإجابة على الأسئلة السابق ذكرها:

وعلاوة على ذلك فسوف نركز اهتمامنا على الاختلافات والفروق التاريخية والاختلافات المجتمعية والسياسية التي تسهم في الثورات القائمة على الفلاحين أكثر من اهتمامنا بالتصورات التاريخية عن طبيعة الفلاحين كنمط إنساني عام. فبعض الجدالات القائمة بين الكتاب تدور حول النظرة إلى الفلاحين على أنهم تضامنيون جمعيون، في مقابل من يصرون على أن الفلاحين فردانيين عقلانيين تنافسيين، وبدلاً من الكلام عن طبيعة الفلاحين سنركز اهتمامنا على محاولة التنبؤ بسلوكهم أو ثوريتهم أو عدم ثوريتهم، فالبنى الاجتماعية المختلفة وصيغ السياسية الكلية Political Configuration يشكلان مدخلاً أكثر ملائمة للتحليل والتفسير.

٢- ما هي الفئات الفلاحية الأكثر قابلية للانخراط في الثورة ؟

سيبدأ نقاشنا للدراسات السابقة بسؤال محدد هو: من هم الفلاحون الأكثر ثورية، ولماذا؟ وفيما يخص هذا السؤال نجد أن ثلاثة من الدارسين المعنيين يختلفون اختلافا جذرياً في أجابتهم علية. فـــ "اريك وولف وجيمس سكوت" يرون أن الفلاحين الأكثر ثورية وقابلية للانخراط في الثورات هم سكان القرى المالكون للأرض. أما جفري بيج فيرى إن الملاك الصغار هم محافظون وهادئون، بينما الفلاحون العمال غير المالكين أو المحاصصين المزارعين الذين يحصلون على دخلهم من الأجور وليس الأرض هم الأكثر قابلية لأن يصبحوا ثوريين.

والمفتاح الذي يُفسر من خلاله "جيمس سكوت" الثورات، هو ما إذا كانت الطبقة الدنيا لديها الاستقلال الثقافي، والتنظيمات الاجتماعية المستقلة لمقاومة تأثيرات الهيمنة التي تمارسها النخبة الحاكمة. فبالرغم من محليتهم وتقليديتهم، فإن الملاكين الصغار من فلاحي ما قبل الرأسمالية والمحصاصين أو المستأجرين هم الأقل قابلية لأن يتمتعوا بهذه الاستقلالية، فقراهم وعلاقاتهم القريبة وشبكاتهم الاجتماعية تعزز من تضامنهم الجمعي المحلي، حتى في حال كون رؤاهم وقيمهم في تناقض وتوتر مع قيم الطبقة المسيطرة. وعلاوة على ذلك، فإن العمليات الاقتصادية الإنتاجية المباشرة تتم السيطرة عليها بشكل مباشر من قبل الفلاحين أنفسهم وإذا كان هذه التحليل صحيحاً، يستنتج "سكوت" قائلا: إن هذا يتضمن أننا سنجد أكثر مقاومة للرأسمالية والتدخل وتطفل الدولة بين الفلاحين الأكثر عزلة بقيمهم التقليدية الراسخة الما قبل رأسمالية. وبالرغم أن القيم الدافعة لمثل هؤلاء ليست اشتراكية بالمعنى التام وبالمعنى الحديث للكلمة، إلا أن علاقات الاستئجار والتنظيمات الاجتماعية التي نشأوا وترعرعوا فيها ربما توفر الديناميت الاجتماعي للتغيير الجذري، إن وضع العمال الزراعيين المهاجرين وعمال الزراعة المياومون هم أكثر قرباً وتعلقاً بالقيم والمثل الاشتراكية، لكن تنظيمهم الاجتماعي يجعلهم أقل تماسكاً على الصعيد الثقافي وبالتالي اقل قابلية لمقاومة الهيمنة (Scotts,1976).

أما "وولف" فيبدو أنه على اتفاقاً مع "سكوت" حول مسألة أي نوع من الفلاحين هم الأكثر قابلية للانخراط في الثورات، لكنه أي "وولف" يقدم تحليلاً مغايراً لأسباب لماذا Why?، فلقد أدهشته العوائق والفقر والضعف الذي يقف في طريق الانخراط السياسي للفلاحين. ويجادل وولف بأن الفلاح الفقير والعامل المحروم من الأرض والذي يعتمد في

الجزء الأكبر من احتياجاته أو فيها كلها على المالك العقاري لا يملك أي منهما سلطة تعبؤية أو تكتيكية ذلك لأنه لما لم يكن لديه موارد خاصة لخوض المعركة من اجل السلطة، فهو ينتمي بكليته إلى منطقة نفوذ مشغلة. لهذا كان الفلاحون أو العمال الذين لا يملكون أرضاً عاجزين عن القيام بثورة ناجحة إلا إذا كان في استطاعتهم الاعتماد على قوة خارجية للوقوف في وجه الظلم (وولوف، ١٩٧٧: ٢٨٢). وقد كانت هذه القوة الخارجية، فيما يتعلق بالمكسيك هي جيش يوكاتان Yucatan الدستوري الذي حرر العمال الكادحين من عبودية الديون بواسطة عمل " آت من فوق" وانهيار الجيش الروسي عام ١٩١٧. ورفض الجنود الفلاحين الذين امتشقوا السلاح في القرى، وإنشاء الجيش الأحمر الصيني بوصفة أداة لتحطيم سلطة الملاك العقاريين في القرى، وعندما توجد هذه القوة الخارجية يصبح لدى الفلاح الفقير والعامل الذي لا يملك أرضاً الاستعداد للتحرك والثورة، وفي حال انعدامها يحدث العكس. أما الفلاحين الأغنياء فهؤلاء لا يأخذون جانب الثورة. فالفلاح بوصفة مستثمرا لعمل الآخرين ومقرض مال أو وجيهاً أو مختاراً من قبل جهاز الدولة، يمارس سلطة محلية بالاتفاق مع أرباب السلطة الخارجية، ودائرة سلطته في القرية إنما هي تابعه، فهي تتوقف على استمراريتها مع دوائر السلطة التي هي خارج القرية. ولا يؤيد الفلاح الغني الثورة إلا عندما تتوصل قوة خارجية كالجيش الأحمر في حال الصين إلى تحطيم مراكز السلطة العليا. ويختتم وولف كلامه بالاستنتاج بأن العنصر الفلاحي الوحيد الذي يتميز ببعض الأهمية الداخلية هو " الطبقة الفلاحية المتوسطة المالكة لأرضها أو الفلاحين المقيمين في منطقة حدودية خارجة عن سلطة الملاك العقاريين. والطبقة المتوسطة مؤلفة من فلاحين يملكون أراضيهم ويعملون فيها بمعاونة عائلاتهم، وعندما توجد هذه الاستثمارات الفلاحية ضمن دائرة سلطة أعلى يمنح امتلاك الموارد الخاصة للفلاحين قدراً من الحرية التعبويه التكتيكية تمكنهم من الوقوف في وجه سادتهم " يحدث نفس الشيء للفلاحين الفقراء أو المتوسطين الذين لا تتأثر منطقتهم بالقوة الخارجية الا بشكل هامشي" (وولف، ١٩٧٧: 283-٢٨٢). ولقد وجدت مثل هذه الفئات والقوى الفلاحية في مقاطعة موريلوس وكومونات المنطقة الزراعية الوسطى من روسيا، والمعقل الذي أقامه الشيوعيون الصينيون في الشمال بعد "المسيرة الطويلة"، ولوحظ وجودها كقاعدة للثورة في فيتنام وبين فلاحي الجزائر، ومحتلي الأرض في مقاطعة اوريانتي بكوبا. فالفلاحون المتوسطون الذين اعتبروا من قبل علماء الأناسة والاجتماع المدافعين عن التقاليد الفلاحية بالأرياف، ويا للعجب هم الذين قاموا بنسف النظام الاجتماعي الفلاحي. ولكي يزول العجب فأن الطبقة الفلاحية المتوسطة هي أشد الفئات تأثراً وتضرراً بالتغيرات الاقتصادية المترتبة على نشؤ المبدأ التجاري(وولف، ١٩٧٧: 274).

وأخيراً وهذه مفارقة أخرى – يتعرض الفلاحين المتوسطين لتأثير البروليتاريا في المدن. فالفلاح الفقير أو العامل الزراعي الذي لا يملك أرضاً فبهجرته وتحوله إلى المدينة فإنه يقطع صلته بالأرض، إما الفلاح المتوسط فيبقى في أرضه ويرسل أبنائه للعمل في المدينة، وهكذا يصبح في وضع يكون فيه فريق من أسرته محتفظ بقدم في الأرض بينما يتلقى الفريق الآخر "تدربه في المدن". وبذلك يتحول إلى جهاز اتصال ينقل سخط المدينة والأفكار السياسية". ويتابع وولف قائلا: إن هذا يدعو إلى التأمل فمن المحتمل أن يكون ظهور يد عاملة صناعية، مانزال مرتبطة بالحياة القروية، هو الذي يولد النشاط الثوري أكثر من نمو البروليتاريا العمالية من حيث هي طبقة بروليتارية. وفي النهاية، فإن العامل الحاسم الذي يجعل الثورة الفلاحية ممكنه هو " الصلة بين الطبقة الفلاحية وبين حقل

السلطة الذي يحيط بها. فالثورة لا يمكن أن تولد في وضع من العجز المطلق(وولف، ١٩٧٧: ٢٨٢).

وبناءً على ذلك، فإن رغبة الفلاح المتوسط أو الحر في الاحتفاظ بصفته التقليدية هي التي تجعل منه ثورياً. وعلى هذا، فإنه بالنسبة لـــ "وولف"، فان العامل الحاسم في تعزيز ثورية الفئات الفلاحية المالكة ليس ثقافيا كما يراه "سكوت" Scott بل هه عباره عن مزايا مادية وتنظيمية يوفرها لهم وضعهم من أجل القيام بالمقاومة الجمعية ضد ظلمتهم الخارجيين.

أما الطريقة التي يعالج بها "جيفري بيج" مسألة أي الفئات الفلاحية أكثر قابلية للانخراط في الثورة فتختلف إلى حد بعيد عن مدخل وولف وسكوت. فبدلاً من الكلام القرى الفلاحية التي تواجه قوى خارجية. فإن "بيج" ينضم حجته بشكل حصري على أساس العلاقات الطبقية بين طبقة المزارعين الدنيا والطبقة العليا غير الزراعية ويحدد وضع كل منها حصريا بالاستناد إلى علاقتها بعوامل الإنتاج: الأرض وراس المال مستخدما مصدري الدخل الأساسيين للطبقتين كمتغيرات مستقلة ويصف لنا بيج أربع أنماطا مثالية للنظام الاجتماعي الريفي.

هي: نظام الهاسيندا التجارية Commercial hacienda نظامي المحاصصة Sharecropping والعمالة المهاجرة Migratory labor ونظام الحيازة الصغيرة Smallholding وأخيرا نظام الزراعة الرأسمالية.

وبالاستناد إلى هذه الأنظمة الاجتماعية –الاقتصادية يطور "بيج" فرضيته عن السلوك السياسي للطبقتين: كيف يشكل البناء الاجتماعي الاقتصادي أهداف الصراع، والوسائل التي تختارها وتستخدمها الطبقات في الصراع، والأثار الاجتماعية المحتملة إذا كان صراع المزارعين ناجحاً. إن مقولة "بيج" الأساسية هي أن السلوك السياسي سيكون مختلفاً إلى حد كبير بالاعتماد على ما إذا كانت الطبقات الزراعية وكذلك غير الزراعية يتلقون دخلهم الأساسي من الأرض أم لا. فطبقة غير الزراع التي تعتمد على الأرض في دخلها لا تستطيع تحمل الأسواق الحرة، ولهذا السبب تلجأ إلى استخدام القمع والروابط السياسية الشخصية وليس القوى الاقتصادية للمحافظة على وضعها الاجتماعي. فالإنتاج الزراعي راكد ولا توجد استثمارات لتحسين الإنتاج. والصراع على الفائض مع المزارعين هنا عبارة عن صراع أما نحن أو أنتم. والصراع الاقتصادي في وضعاً كهذا يحاجج "بيج" يتخذ طابعاً سياسياً، والسبب هو أن الطبقة العليا لا تتخلى عن أي جزء إضافي من الإنتاج دون أن تنقص حصتها من الإنتاج. وفي المقابل، فإن الرأسماليين في القطاعات الاقتصادية الأخرى يتركز اهتمامهم عل الأسواق الحرة، بجميع عوامل الإنتاج، ويستطيعون زيادة الإنتاج من خلال الاستثمار. ففي القطاع الزراعي الرأسمالي "فإن سيطرة قوى السوق تبدوا أنها تخفف من حدة الصراع" لأن هناك مجالا للمفاوضات والتنازلات. أما المزارعين الذين يعتمدون على الأرض في جل دخلهم فأنهم نمطياً يكرهون المجازفة، وبالتالي يتجنبون السياسة الثورية، فحوافز المنافسة الاقتصادية قوية، والسبب هو أن "بيج" ينظر إلى الفلاحين على أنهم عقلانيين يحاولون تعظيم مكاسبهم المادية الأنية.(Paige, 1975:42)

وبالنظر إلى أهداف الصراع الزراعي يوضح بيج أنه في الهاسيندا التجارية فإن المزارعين مهتمين بالدرجة الأساسية بالحصول على المزيد من الأرض لزراعتها. وهنا

في هذه الحالة يتخذ الصراع طابعاً سياسياً. والسبب هو عدم مرونة الطبقة العليا. ولكن حالما يتم إشباع جوع الأرض فإنهم يتحولون إلى ملاك صغار محافظين. إن هذا النمط من الثورة هو لهذا السبب قصير الاجل يتكون من الغزو والاستيلاء على الأرض، وبالكاد له القليل من التأثير الثوري على بقية المجتمع. وعندما تأتي التغيرات الاجتماعية فإنها لهذا السبب تنمو باتجاه الاستقرار. أي أن القوى الاقتصادية – قوى السوق – تصبح هي الوسيط الرئيسية بين الطبقات. وفي هذه الحالة، فإن التغير يكون من نظام الهاسيندا التجارية إلى نظام الحيازة الصغيرة ويتركز بصورة مباشرة حول توزيع صافي الإنتاج. وهنا لا مجال للمساومة بين الطبقتين، وما يحدث هو في العادة بعض الزيادة في أسعار السلع التي يتلقاها المنتجون من الرأسمالي المتوسط. ونفس الشيء يحدث في حالة الزراعة الرأسمالية. فنتائج الصراع الأكثر احتمالا هي الإصلاح. الذي يدور حول أجر قوة العمل، وهذا لا يقود إلى تناقضات حادة بين الطبقتين. ويحاجج بيج أنه فقط في حالة نظام المحاصصة والعمالة المهاجرة هناك احتمالية للثورة. وهكذا فإن بيج لديه نظرية ضمنية في الإصلاح وكذلك في الثورة (Paige, 1975:284).

وحتى نفهم الثورات الفلاحية، يحاجج "بيج" فإنه من الضروري أن ننظر إلى كل نظام اجتماعي اقتصادي على أنه نظام مجذر قبل أن نقوم باي عملية استنتاج على المستوى المجتمعي. وهكذا ومن اجل اختبار هذه الفرضيات، وبدلاً من أن يستخدم بيج البلدان كوحدات للتحليل فإنه يصر على ضرورة استخدام المناطق الزراعية التصديرية نفسها. وبهذه الطريقة يكون لدينا مناطق متعددة للتحليل ضمن البلد الواحد. وهكذا ينتهي تحليل بيج بمعالجة ١٣٥ قطاع تصديري في ٧٠ بلداً، ومحللا أيضا ١٥٠٠ حادث تم تقريره عن عدم الاستقرار الزراعي خلال الفترة 1948– 1970.

إن أحد أبرز خصائص حجة بيج هي إصراره على أن أنماط الصراع الطبقي الزراعي تعتمد ليس فقط على خصائص وأوضاع الطبقة الدنيا ذاتها، بل أيضا وبنفس القدر على خصائص وأوضاع الطبقة العليا الغير الزراعية، فعلى سبيل المثال يحاجج "بيج" بأن إمكانية الثورات الفلاحية تكون على القائمة Agenda فقط عندما تكون الطبقة العليا تحصل على دخلها من العمل وليس من رأس المال، لأنه في هذه الحالة فقط، تكون الطبقة العليا وبحكم وضعها البنيوي مجبرة على رفض أية تحسينات ومساومات وتنازلات. وهذا يؤدي إلى نشوب الصراع مع الطبقة الدنيا، والذي هو صراع إما نحن أو أنتم. هذا الصراع تكون فيه السيطرة على الملكية وسلطة الدولة هي المسألة. أن منطق العلاقات الطبقية في تحليل بيج نموذجى، فمسألة أن يصبح الفلاحين ثوريين هي مسألة تعتمد وبنفس الوقت على مصالح الفلاحين وقدرات الطبقة المناوئة لهم كما تعتمد على مصالح وقدرات الفلاحين أنفسهم.

ويحاول بيج أن يقيم تمييزاً نظرياً دقيقاً بين مناطق في فيتنام التي قدمت دعماً اجتماعياً عضوياً للشيوعيين والمناطق الجغرافية الهامشية التي انتعشت خلال المرحلة العسكرية من الثورة. وبإستخدام هذا التمييز يحاجج "بيج" بأن أول دعم تلقاه الشيوعيين في تاريخهم تركز في المناطق التي كانت تقوم على الزراعة التصديرية، ومناطق زراعة الأرز بالمحاصصة في الميكونغ دلتا Mekong Delta في جنوب فيتنام، وبالضبط وبالاستناد إلى تحليله حيث طبقة الزراع الدنيا التي تتكون من العمال الزراعيين المأجورين المحرومين والذين تدفع أجورهم على شكل جزء من المحصول والمحكومين

بالعرف والقانون العام في ظل اقتصاد تصديري يسيطر عليه سادة الأرض، المقرضين، والتجار. فمزارعو نظام المحاصصة في جنوب فيتنام، كما يبين "بيج" كان لهم المصلحة والقدرة على الفعل الجمعي الثوري. بينما كان الملاكون الصغار من الفلاحين وسط وشمال فيتنام يعيشون تحت سيطرة نبلاء القرى وكانوا منقسمين على أنفسهم بفعل المنافسة على الأرض وعلى مصادر القرى الاقتصادية.

وهكذا، فإن الإجابات المتوفرة عن سؤالنا السابق – من هم الفلاحين الاكثر ثورية، ولماذا ؟ هي بلا شك متناقضة. من على صواب؟ أو لنضع السؤال بصيغة أخرى، من كانت طريقته في طرح المسائل وتقديم التفسيرات لها أكثر صحة؟ إذا كان المقياس أو المعيار على الصحة هو نمط الحجج والبراهين والدقة والتعقيد المنهجي، فإن صوتنا يذهب إلى "جفري بيج". فكتابة الثورات الزراعية هو كتاب غير عادي من حيث الصرامة والدقة في التفاصيل. ولكن وبالرغم من ذلك، فأننا نعتقد أن حجة "بيج" يعترضها سؤال مهم جداً وهو سؤال من هم الفلاحين الأكثر قابلية للثورة.

وكما لاحظنا سابقاً، فإن نموذج "بيج" يتنبأ بأنه في الأنظمة الزراعية حيث كلا الطبقتين العليا والدنيا يحصلون على دخلهم من الأرض فإنه لن يكون هناك " سوى نشاط سياسي ضئيل في أفضل الحالات ". وعلى أية حال، فإن بيج مجبر لأن يلاحظ أنه وبالرغم من أن " تركيبة الخصائص السياسية للطبقات العليا والدنيا التي تعتمد على الأرض تقود إلى القليل من أحداث العصيان والانتفاضات الدورية والتي كانت معلماً بارزاً في اقتصاديات الضياع والعُزب Manorial Economies بدءاً من حروب الفلاحين في المانيا في القرن السابع عشر وإلى الثورة البوليفية عام ١٩٥٢ (Paige, 1975:42)

ويعترف "بيج" أن هذه الحقائق التاريخية تبدوا وأنها تناقض المبدأ القائل أن الفلاحين يفتقدون للتنظيم السياسي المتماسك الضروري لمواجهة ومعارضة سادة الأرض " ويدعي بيج أن لا تناقض حقيقي هنا، فالذي يساعد الفلاحين على التحرك هو انهيار سلطة الدولة أو التحالف السياسي الخارجي، "فانتقاضات الفلاحين في نظام الهاسيندا التجارية يعتمد على إضغاف السلطة العميقة للاستقراطية وعلى وجود قوى تنظيمية من خارج المجتمعات الفلاحية أو الاثنين معاً "(Paige, 1975:42) ولكن حتى في حالة توافر وتدخل مثل هذه العوامل، فإن هذا لا يعني أن الفلاحين سيصبحون ثوريين حقا"، إن تفسير بيج يعتمد على خطوات عدة:

إن العديد من ثورات الفلاحين التي حدثت كانت الطبقة العليا في حالة ضعف وهي أكثر من مجرد الركض واللهث وراء الأرض من قبل الالاف من الفلاحين الطامعين في الأرض التي يعتبرونها قانونيا حقاً لهم. إن الاستيلاء على الأرض يمكن أن يدمر البناء الطبقي الريفي وأن يقضي على السلطة السياسية للطبقة العليا ومع ذلك وحتى بعد إضعاف الطبقة العليا وقيام الطبقة الدنيا بالاستيلاء على ممتلكاتها، فإن الفلاحين أنفسهم يظلون مفتقدين للتنظيم السياسي الداخلي للاستيلاء على جهاز الدولة(Paige, 1975:42).

إن الفلاحين نادراً ما كانوا المستفيدين من التغيرات السياسية التي أطلقوا شرارتها، فالأحزاب إصلاحية كانت أم اشتراكية هي التي توفر التنظيم السياسي المعارض للصفوة المالكة للأرض التي لا يستطيع الفلاحين أنفسهم القيام بها، ولهذا السبب، فإن الأحزاب السياسية هي التي كانت تملأ الفراغ الذي يتركه رحيل طبقة ملاك الأرض العليا.

ولقد أوردنا هذه الاقتباسات المطولة لأنه من المهم أن نعرف ما الذي يقوم به بيج هنا. ففي سياق تطويره للمقولة النظرية التي تتوقع " قلة أو انعدام النشاطات السياسية للفلاحين "، فانه يورد العديد من الأدلة التي تدعم نظريته. وفي الحقيقة، فإن بيج في نقاشة يقدم لنا صياغة مختلفة عن التنبؤات النظرية القائلة بعدم وجود النشاطات التي بدأ بها، وبدلا من ذلك يقرر " أن خصائص أشكال السلوك السياسي في الأنظمة التي تكون فيها كلا الطبقتين العليا والدنيا معتمدتان في دخليهما على الأرض هي على التوالي أما اللامبالاة السياسية أو الثورة الفلاحية (Paige, 1975:43).

والأكثر من ذلك وبالرغم من أن بيج لا يقول ذلك صراحة فهو يدرك أنه في ظل شروط عسكرية ملائمة، فإن مثل هذه الثورات والهبات الفلاحية يمكن أن يكون لها نتائج ثورية حقيقة، وكل هذا يقال عنه أنه لا يؤثر على توقعات "بيج" النظرية لأن الفلاحين يثورون فقط من أجل تحقيق أهدافاً أنية (مثل طرد السادة ملاك الأرض والاستيلاء على ممتلكاتهم). وبذلك فهم لا يهدفون إلى تحقيق وإقامة سياسات وطنية، ولأن ثورات الفلاحين يمكن أن تنتشر وتحقق نتائج دائمة فقط عندما تنهار القوة العسكرية للدولة أو عندما يتدخل منظمون وقوى خارجية كالأحزاب الثورية لمساعدة الفلاحين.

ولا يقول بيج شيئاً بخصوص كل هذه المناورة في تناول ثورات الفلاحين الملاكين وفيما إذا كانت خاطئة على الصعيد التاريخي. ولكن يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن بيج الآن قد وضع معايير هائلة على الطبقة الزراعية حتى تتأهل كطبقة ثورية حقاً. إن حب الاستطلاع قد أثارنا: هل طبقة العمالة المهاجرة والمحاصصون تفي بهذه المعايير النظرية التي يضعها بيج؟

وبالنسبة لـــ "بيج" فإن الشكل النمطي من الحركات الاجتماعية في الأنظمة التي تعتمد على ملكية الأرض والعمل المأجور هو النمط الثوري. ومثل هذه الحركة تتضمن ليس فقط الصراع العنيف على ملكية الأرض والهجوم المباشر على نظام التدرج الاجتماعي الطبقي الريفي، ولكن أيضاً تتطلب جهداً سياسياً منظماً للاستيلاء والسيطرة على الدولة. وحرب العصابات طويلة الأجل هي النتيجة الأكثر احتمالاً، بل وعلاوة على ذلك يميز "بيج" بحذر بين نمطين فرعيين ضمن الطبقة الزراعية وطبقة العمل المأجور، ففي النمط الفرعي الأول نمط العمالة المهاجرة نجد أن العمال أنفسهم منقسمين جدا بحيث أنهم لا يستطيعون تشكيل تنظيم سياسي متناسق ضروري لخوض العصيان المسلح. وهكذا فإنه فقط في المناطق المستعمرة حيث لم يتم القضاء على سلطة طبقة ملاك الأراضي يمكن أن تحدث الحركات القومية الثورية. وفي مثل هذه الحالات فإن للأحزاب القومية المنظمة والجيوش التي تخلقها وتشكلها الصفوات المحلية يمكن أن يمكن تتدخل لتنظيم العمال المهاجرين، والذين هم لولا هذا التدخل هم مثل الفلاحين في الهاسيندا الزراعية غير قادرين على توفير القوى التنظيمية لمعارضة ومواجهة سلطة ملاك الأرض (Paige, 1975:68). ولذلك فمن الواضح وبالنسبة لتوعية الثوريين والقوميين " الأرض والأجور" فإن "بيج" يفشل حتى فى تأكيد أن هناك ديناميكيات بين المزارعين أنفسهم تختلف عن تلك الموجودة في مقولة " الأرض والأرض "، وبإمكان الناقد أن يميز أن هناك اختلافات في السلوك السياسي بين الحائزين الصغار من الفلاحين والعمال المهاجرين تبدو أنها لا تعتمد كثيراً على مصادر الدخل للمزارعين أنفسهم بقدر ما تعتمد على السياق المجتمعي والسياسي العام والذي تتموضع الطبقة الدنيا ضمنه.

ونصل في كتاب "الثورات الزراعية" إلى نقاش للطبقة الثورية حقا الزارعين المحرومين من الأرض والمحصاصين في النظام اللامركزي لزراعة الأرز، فالعوامل العسكرية والأحزاب السياسية المنظمة تنتهج أدواراً مختلفة تلعبها في الثورات القومية. فالثورات الاشتراكية هي بالنسبة لبيج ثورات قائمة على أساس طبقى. وهنا نجد أيضا أن الأحزاب الايدولوجية المنظمة تشارك في هذه الثورات – وتحديداً الأحزاب الشيوعية. لكن "بيج" يصر على أن هذه الأحزاب لها علاقة دعم خاصة ومميزة من المحاصصين المستأجرين: فمناطق المحاصصة تظهر لنا أنها مناطق جذب للأجنحة اليسارية وخاصة الشيوعية ولديها إمكانية مدهشة للتنظيم. فهي على العكس من السياسة الفلاحية المعتمدة على الأفراد الذين يعيشون على الكفاف من قطع أرضهم الصغيرة. وهذه الارتباطات السياسية يتم خلقها من الداخل وليست مستحدثة أو قادمة من الخارج عن طريق الأحزاب ذات القاعدة الاجتماعية، وفي حالة نظام اللامركزية فإن التنظيم يقوم به الحزب الشيوعي، إذ يقوم بتنظيم العمال الذين من نفس المجتمعات المحلية " (Paige, 1975:68). وباختصار يود "بيج" أن يقودنا لتصديق أن الأحزاب المنخرطة في تنظيم الملاك الصغار أو العمال المهاجرين يأتون إليهم من الخارج، بينما الأحزاب الشيوعية التي تنظم محاصصي زراعة الأرز يأتون بطريقة ما من الداخل وكأنهم تعبير خالص ونقي عن المصالح الطبقية للمزارعين ، وتصميمهم الثوري في القضاء على الملاك الكبار وعلى الدولة.

إن لحظة من التأمل ستبين لنا أن تنظيرات بيج ومعالجته للثورة الشيوعية في فيتنام وفي مناطق أنظمة زراعة الأرز بالمحاصصة غير دقيقة. فالأحزاب الآسيوية الشيوعية كما هو الحال في جميع الأحزاب السياسية الحديثة من إصلاحية واشتراكية وقومية قد تم خلقها وقيادتها من قبل أناس متعلمين في المدن وينتمون إلى الطبقة الوسطى، ولا يمكن القول بأي معنى من المعاني؛ أنهم تنظيم مستقل تم خلقه من قبل الطبقة الزراعية الدنيا ففي بعض الأحيان، فإن هذه الأحزاب كانت تعمل داخل الأرياف من أجل التعبئة السياسية وبدون أن يزحفوا بقواتهم العسكرية الخاصة. وفي أوقات أخرى وخاصة خلال حرب العصابات الثورية. فالأحزاب الشيوعية الآسيوية وحدت التعبئة السياسية والعسكرية للفلاحين وبالأساس توجهت الأحزاب الشيوعية إلى الطبقات الدنيا في سعيها للحصول علي دعمهم من اجل تحقيق الأهداف السياسية الوطنية تلك الأهداف التي تتجاوز الأهداف المباشرة والأنية للغالبية العظمى من الفلاحين سواءً كانوا ملاكين صغاراً أو محاصصين. ففي فيتنام كان لدى الشيوعيين أهدافاً قومية ضد الاستعمار تماماً كما كان لديهم أهداف اشتراكية ثورية والتي يركز عليها "بيج". إن بقاء واستمرارية الحزب الشيوعي الفيتنامي من عام ١٩٣٠ في الشمال ثم في جنوب فيتنام هو ببساطة، شيء لا يمكن فهمه إلا على أساس أنه نتيجة الانتشار والمؤازرة والدعم الاجتماعي له بين مختلف فئات الفلاحين الفيتناميين هذا عدى عن العمال والطبقات الوسطى.

تبلغ حجة "بيج" حول القاعدة الاجتماعية للشيوعيين الفيتناميين ذروتها عندما تشير إلى الفيتناميين الجنوبيين في منتصف الستينات–وخصوصياتها وتناقضاتها العديدة . فبالنسبة لمجمل فيتنام فإن "بيج" يستبعد المناطق التي لا توجد فيها أنظمة المحاصصة . ويعتبر أن قوة حضور الشيوعيين فيها مؤشر ودليل على حضورهم العسكري وليس نتيجة الإعجاب السياسي بهم من قبل الفلاحين (Scott, 1976:292).

وبالنسبة لجنوب فيتنام يستخدم "بيج" دليل مؤشرات للمواقع الجغرافية التي حدثت فيها اغتيالات لسادة ومخاتير القرى من قبل جبهة التحرير القومية التي كان يقودها الشيوعيون. ولكن الاغتيالات هي بالتأكيد تعبيراً عن اتحاد أو مزيج من الصراع السياسي والعسكري. والأكثر من ذلك أهمية، أن هذه الاغتيالات منطقياً تظهر لنا تلك المناطق التي كان الشيوعيين يصارعون للاستيلاء عليها وليست أمكنه سيطروا عليها سابقاً وفي الحقيقة، فإن النقاشات التاريخية لبيج نفسه تظهر حقيقة معروفة جيداً عن السياسة في جنوب فيتنام. لقد كانت هذه المنطقة دوماً الجبل الذي يدور الصراع عليه بالنسبة للشيوعية وليس ذلك بسبب القوة العسكرية الفرنسية ومن بعدها الأمريكية، فحتى في هذه المناطق وبالاستناد إلى تنظيرات بيج نفسه حول العلاقات الطبقية الثورية الأساسية، فلقد كان على الشيوعيون أن ينافسوا على السلطة ليس فقط مع التنظيمات الحكومية المحلية العميقة التي كان يسيطر عليها السادة الملاك ، ولكن أيضاً مع مجموعتين قويتين غير ثوريتين هما الكاوديا Cao Dia والهاو هاوHao Hao . فالها هاو وبالاستناد إلى معطيات بيج نفسه قد عملوا بشكل جيد بين محاصصي زراعة الأرز تماماً كالشيوعيين. ولقد انهارت هذه المجموعة فقط بعد اغتيال قائدها وما تعرضت له من قمع حكومي. وحتى ذلك الوقت كانت تنظيماً فلاحياً عفوياً صادقاً أكثر حتى مما كان عليه الشيوعيين. إذاً نظرية بيج لا تستطيع تفسير ظاهرة الهاو هاو، وذلك إن النظرية تتنبأ فقط بظهور " الاشتراكيين الثوريين " في نظام زراعة الأرز بالمحاصصة في دلتا الميكونغ Mekong .

وبالاختصار، فإن حجة "بيج" حول القدرة السياسية لملاكي الأراضي في مقابل الفلاحين المحرومين من الأرض لا تصمد أمام النقد. فنظريته تقدم لنا نوعاً من الثوريين الاشتراكيين المنتمين للطبقة الزراعية الدنيا التي لا توجد على أرض الواقع. ولا يقدم لنا بيج أي دليل على أن المزارعين في هذه الفئة بامكانهم أن ينظموا أنفسهم بفعل وعيهم الذاتي للقضاء على العلاقات الطبقية والدولة. إن تواجد النشاطات والشعارات الشيوعية بين المحاصصين هو الدليل الامبريقي الوحيد على " الاشتراكية الثورية"، والنتيجة إن مصدر الدخل إذا ما أخذ مجرداً فإنه لا يشكل مفتاحاً تنبؤياً للمصالح السياسية وقدرة الطبقات الزراعية.

ولنعد إلى مور حيث يقدم تتميزاً بين نمطين مقارنين للتضامن الاجتماعي المحلي "النمط المحافظ"، والذي يكون فيه صغار الملاكين والمستأجرين أو العمال الأجراء محكومين ومسيطر عليهم من قبل الفلاحين الأغنياء والسادة كبار ملاك الأرض الذين يسيطرون على المصادر وعلى إدارة شؤون المجتمع القروي، في مقابل التضامن الثوري، والذي يتشارك فيه الفلاحون أنفسهم بالمصادر ويقومون بإدارة تنظيمات القرية والتي بالإمكان تحويلها إلى كتلة متضامنة ضد الملاكين الكبار وضد الدولة.

إن العودة إلى بارنغتون مور تبين لنا نوع المدخل التحليلي الضروري الذي ينظر للعلاقات المؤسسية والاقتصادية والعلاقات السياسية بين الطبقة العليا من ملاك الأراضي والطبقات الزراعية الدنيا من جهة والعلاقات المؤسسية بين الفلاحين أنفسهم من جهة ثانية.

وهنا يتفق جيمس سكوت واريك وولف مع بارنغتون مور باستخدام المنهج الاجتماعي البنيوي. إن سكوت ربما يكون على حق في بعض تأكيداته حول الإمكانية الثورية للمجتمعات الفلاحية، ولكن منهجيته الثقافية الطابع تقوده إلى نوعاً من الرومنطيقية، والإقرارات اللاتاريخية حول طبيعة الفلاحين بشكل عام. فمن يقرأ سكوت

سيخرج بانطباع هو أن جميع القرى الفلاحية متشابهة: جمعية، ذات توجه اكتفائي، غير استغلالية، وفي تناقض ثقافي مع الطبقات المسيطرة. وعلى الصعيد الاقتصادي في حالة دفاع ضد الرأسمالية أو الإمبريالية. ولكن وكما بين جفري بيج (Paige, 1975:292) بالتفاصيل في حالات القرى في وسط وشمال فيتام، إذ وجد أنها استغلالية وتنافسية ومنقسمة داخلياً وأن التوترات يمكن أن توجد في الاقتصاد القروي الاكتفائي الطابع، فالضغوطات الإمبريالية يمكن أن تفاقم الانقسامات الداخلية والاستغلال.

وكما بينت التحقيقات التاريخية لمور واريك وولف فإن التنوعات البنيوية الطبقية والتنظيمات المجتمعية في المجتمعات الزراعية كثيرة جداً. وهذه التنوعات تحدد بالمقابل استجابات كل من السادة ملاك الأرض والفلاحين تجاه الرأسمالية، وكذلك مختلف أنماط الاستجابات السياسية عندهم. أن منهج سكوت الثقافي اللاتاريخي لا يستطيع أن يتعامل وصفياً مع الواقع دع عنك أن يفسر لنا هذه التنوعات في البنى ونتائجها.

ولقد كان وولف حساساً بما فيه الكفاية للقضايا الاجتماعية البنيوية وللقضايا السياسية التي يجب أخذها بعين الاعتبار من اجل تفسير الثورات القائمة على الفلاحين. إذ يستقصي نظام حيازات الفلاحين وعلاقتها ببعضها البعض وعلاقتها بالسادة الملاك وكذلك علاقتها بالدولة والقوى السياسية والعسكرية المنظمة التي تتحدى الدولة. وبالإصرار على هذه القضايا، فإن وولف يتجاوز حتى برنغتون مور. فمفهوم وولف عن " الحراك التكتيكى" للفلاحين يشمل العديد من الاهتمامات نفسها التي تناولها مور في نقاشه لنمط التضامن المحافظ في مقابل النمط الثوري في القرى. ويذهب وولف إلى ابعد من قضية ما إذا كان الفلاحين متضامنين جميعاً وأحرار من سيطرة السادة الملاك. وتتناول مفاهيمه قضية التحرر النسبي للفلاحين من قمع الدولة، سواءً كان هذا التحرر بحكم الموقع الجغرافي الهامشي أو نتيجة تدخل قوى الثورة المسلحة لحمايتهم، وبمعنى من المعاني، فإن منهج وولف التفسيري معقداً جداً ومبهم ليكون أكثر من مجرد منظومة تأشيريه. فهو يقترح أنه يجب علينا أن نفحص ليس فقط وضع الفلاحين والاقتصاد الزراعي لوحدهما إذا ما أردنا أن نفهم مشاركة الفلاحين في عمليات التحول الثوري. وعند هذا الحد من النقاش نود التوقف عن مناقشة الجدال حول أي الفئات الفلاحية هي الأكثر ثورية، لننتقل إلى فحص كيف يؤثر السياق السياسي والقوى الاقتصادية على الثورات القائمة على الفلاحين.

٣- ما الدور الذي يلعبه التنظيم السياسي في الثورات القائمة على مشاركة الفلاحين ؟

لم نناقش محاوله جول مجدل Joel Migdal لحد الآن. ومن المناسب أن نستحضر بعض حججه. يركز مجدل على محوريه وأهمية التنظيمات السياسية في الثورات. ويبين لنا كيف ولماذا يصبح الفلاحين ثوريين فكل من وولف وسكوت وبيج يتناولون الثورات (بطريقه أو بأخرى) على أنها مصنوعة من قبل القوى الطبقية. وولف يدخل الدول، والأحزاب والجيوش في الصورة، أما بيج فإنه يركز على النزعة الاقتصادية، فالأحزاب الإصلاحية والاشتراكية والقومية والشيوعية زاخرة في معطياته وتحليلاته التاريخية الإيضاحية. ولكن هذه الأحزاب ليست موجودة عنده كفاعل تاريخي كعامل مستقل. فهي مجرد دلائل ومؤشرات على صراع سياسي محدداً اقتصادياً فمصدر الدخل الزراعي والعلاقات الطبقية يفترض فيها أن تفسر حركات الإصلاح، والثورة والعصيان.

وبالرغم من اختلافه الجذري مع بيج، فإن جيمس سكوت أيضاً يقلل من شأن الأهمية النسبية للتنظيمات السياسية في الثورات الفلاحية. فهو يرى أن "الثورات لكي

تكون ناجحة فإنها ربما تتطلب حزباً منضبطاً أو جيشاً بالإضافة للفلاحين المثارين، وذلك لأن فقط هذه القوى الإضافية بإمكانها أن تزود الفلاحين المتفرقين "بالرؤى والتكتيكات الضرورية، وبالتالي الوصول للسيطرة على سلطة الدولة، فهو يرى أن القوى الثورية المستقلة لا غنى عنها في إحداث العنف الثوري عند الفلاحين، إلا أنه يرى أن الأفعال العفوية للفلاحين في العديد من الحركات الثورية قد قامت بتعبئة وتشكيل قيادتها، فالأفعال الثورية العفوية هي التي تخلق بالعادة الموقف الثوري، وأن المؤسسة السياسية غالباً ما تؤدي إلى إجهاض الثورة. ولا سبب يدعونا للقول بأن القيادة الخارجية للفلاحين هي أكثر ثورية من اتباعها. بل إن المرء يستطيع القول بأنه كلما ازداد تنظيم الفلاحين كلما أدى ذلك إلى التدريجات والترتيبات، وكلما زادت مأسسة الفلاحين، كلما أدى ذلك إلى أن تصبح الحركات في خطر احتوائها من نظام السلطة القائمة (Scott, 1979:292).

وبالمقارنة مع جول مجدل الذي يقر بأن الثورات الفلاحية في القرن العشرين قد تم دفعها من قبل جيوش الأحزاب الثورية التي قامت بتعبئة الفلاحين لدعم الثورات. ومثل هذه الحركات الثورية كما يبين قد تم خلقها من قبل هؤلاء الذين من خارج طبقة الفلاحين، إن مشاركة الفلاحين في التنظيمات الثورية قد طور بناء تنظيميا علويا قام ببنائه الطلبة والمثقفين وأفراد من الطبقة الوسطى (Migedal, Opcit: 233) وللتأكيد فإن الفلاحين يجب أن يكونوا منخرطين في الثورة. وهكذا فإن القضية عند مجدل ليست مسألة أي من العلاقات الطبقية ذاتها هي التي تولد الحركة الثورية ولا كيف تخلق عفوية الفلاحين الأوضاع الثورية وتدفع الصفوات الثورية الرائدة لعمل الثورات. فعلى العكس فمجدل يحاول أن يبين كيف يقوم التبادل الاجتماعي بين الأحزاب الثورية والفلاحين المحليين، وكيف يتم تأسيس تبادل مستقر ومجزي للطرفين يديم استمرارية دعم الفلاحين ومشاركتهم في الحركات الثورية المنظمة.

ويكمن خلف مدخل مجدل للانخراط في الثورات اعتقاد قوي بأن ثورات الفلاحين في الأزمنة الماضية كانت في بعض المناطق في صراع قومي طويل لتغيير أنظمة الحكم وتوزيع السلطة. هذه الحركات لم تكن قائمة على الانفجارات العفوية الفجائية للعنف الناتج عن الإحباط كما هو الحال في ثورات الفلاحين في القرون السابقة؛ فعلى العكس فإن الفلاحين في القرن العشرين انخرطوا وشاركوا في ثورات طويلة الأجل وبوظائف ومهام مؤسساتية مختلفة كأعضاء في الكادر السياسي أو كجنود منضبطين أو مزودين مخلصين للمؤمن والمعدات والنقود، وكذلك كأعضاء نشطين أو خاملين في عدة تنظيمات وجماعات ثورية. ولماذا مجدل في حيرة؟ فهل تغيرت طبيعة مشاركة الفلاحين في الثورة الفرنسية والروسية الأكثر تفجراً من حيث خصائصهما وسماتهما عن سمات وخصائص الثورة الصينية والفيتنامية؟ ولا يجيب مجدل عن هذا التساؤل بطريقة مقنعة، فهو يحاجج بأن الفلاحين في القرن العشرين في العالم الثالث قد واجهوا أزمات اقتصادية لا سابق لها ناتجة عن الضغوط الإمبريالية. والمشاركة في الحركات الثورية المنظمة التي توفر البرامج لمعالجة ومواجهة المشكلات المحلية التي يواجها ويعاني منها الفلاحين، هي إحدى الطرق التي من خلالها يحاول الفلاحون التأقلم مع مواجهة هذه الأزمات غير المسبوقة.

لكن مجدل لا يقارن بتاتاً بين الفلاحين الفرنسيين والروس من جهة والفلاحين الصينيين والفيتناميين من جهة ثانية في مرحلة ما قبل الثورة، ولا يبين لنا كيف أن الصعوبات الاقتصادية التي واجهها هذان النمطان من الفلاحين كانت مختلفة عن بعضها

في جوانب عدة، تستطيع أن تفسر لنا النمط الأنومي أو المرضي (الناتج عن تحلل البنية الاجتماعية) في مقابل الأشكال الممأسسة من المشاركات الثورية. وحتى لو فشل مجدل بأن يفسر لنا بطريقة مقنعة لماذا شارك الفلاحون تاريخياً في الثورات بطرق عدة؛ فإنه يشير إلى فرق يجب بيانه، وهذا الفرق أو التمييز ليس هو في الحقيقة بين الثورات القائمة على الفلاحين في القرن العشرين والثورات السابقة على القرن العشرين. فمجدل على خطأ حينما يجادل بأن الفلاحين الذين شاركوا في الثورتين الفرنسية والروسية هم جماهير هائجة من الأفراد المحبطين. فعلى العكس، فإن الفلاحين في هذه الثورات كانوا منظمين جداً على الصعيد المحلي وسعوا من أجل أهدافهم بإصرار كبير وبشكل مستمر ودائم على مدار حقبة من السنين كما تبين سكولبول في الفصل الثالث من كتابها (Skocpol, Opcit: ch.3) وكذلك تشارلز تلي (Tilly et al, 1975: Tilly, 1976)

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الأساس القروي الذي دعم ثورة اميليانو زباتا في المكسيك، والتي تنطبق عليها نفس الشروط النمطية التي وجدت في الثورة الفرنسية والروسية.

إن النمط المشترك بين هذه الثورات جميعاً كان انهيار أنظمة الحكم القديم المتبوعة بالثورات المحلية التي قضت على الطبقة العليا من ملاك الأراضي والقوى السياسية المحافظة. وقام الثوريون المنظمون بعدها ببناء وتعزيز تنظيمات جديدة للدولة ليس من خلال تعبئة الفلاحين بل من خلال فرض السيطرة الإدارية والعسكرية في الأرياف مستخدمين قدراً كبيراً أو صغيراً من القوة.

وهناك نمطا للمقارنة بين الثورات القائمة على الفلاحين كما في حالة الثورات الصينية والفيتنامية (وربما الكوبية)، وكذلك ثورات حركات التحرر الوطني في البرتغال الإفريقي، وهنا نجد أن الفلاحين قد تمت تعبئتهم من قبل الحركات الثورية المنظمة، إما على الطريقة (الكوبية والبرتغال الإفريقية) أو على غرار (الصين وفيتنام)، ونجد هنا أن انهيار السلطة الفعالة للدولة في أنظمة الحكم السابقة هو قاسم مشترك بين هذه الثورات جميعاً. وبسبب هذه التعبئة المباشرة لهذه المصادر والقوى الفلاحية التي توجت باشتراكهم في بناء تنظيمات ومؤسسات اجتماعية للحكم الجديد، إن مشاركة الفلاحين في هذا النمط من الثورات (الثورات القديمة) حيث كانت النتائج والمكاسب أكبر بالنسبة للمصالح المحلية للفلاحين لأنه وخلال العملية الثورية فقد تمت إقامة روابط مباشرة بين الفلاحين والتنظيمات الثورية السياسية والعسكرية.

وعندما نقوم بالتمييز بين هذين السيناريوهين البديلين للثورات القائمة على الفلاحين، فإن العديد من الاختلافات البينة بين الدارسين حول قضايا من هم الفلاحين الثوريين؟ وما هو الدور الذي تلعبه القوى السياسية المنظمة تنحل، فالأسئلة التفسيرية يمكن فرزها فيما يتعلق بإمكانية انطباقها على هذا النمط أو ذاك من الثورات. ويجب أن يكون من الواضح الآن أن القرى الفلاحية المستقلة هي الأكثر احتمالا في أن تلعب دوراً ثورياً أساسياً في النمط الأول، حيث يسرع انتشار الثورة سقوط النظام القديم، وبطريقة غير مباشرة يعزز ويقوي الظروف المناسبة للحكم الجديد، ودون استعداد بيج للاعتراف بهم وتسميتهم ثوريين، فإنه يصف لنا حالات من هذا النمط تحت مقولة "الثورات الزراعية". وعلاوة على ذلك فإن وولف لديه ما يقوله هنا في خاتمة كتابه، وكذلك فإن كل ما يمكن أن يقوله جيمس سكوت في "الهيمنة والفلاحين" ينطبق على النمط الأول من

الثورات القائمة على الفلاحين. وبالمقارنة فإن جول مجدل يتناول بشكل رئيس النمط الثاني من الثورات كما يفعل بيج تحت مقولته في القومية الثورية.

وعندما تتم تعبئة الفلاحين بشكل مباشر من قبل القوى السياسية الثورية (حسب النمط الثاني) فإن القرى الفلاحية المستقلة ليست مهمة على الصعيد السببي. والأكثر من ذلك هي أن الفئات العديدة منم الفلاحين الذين يعيشون على الاقتصاد الاكتفائي في المناطق الهامشية؛ العمال الزراعيين المأجورين والمستأجرين وايضا حتى الفلاحين المنعزلين في قراهم النائية بل وحتى ملاك الأراضي والفلاحين جميعا–يمكن أن تتم تعبئتهم من قبل الحركات الثورية.

وفي رأينا المتواضع، فإن هناك اتجاهاً في جميع هذه الدراسات يفترض أن انضمام الفلاحين للحركات الثورية المنظمة يجب أن يفسر بالمصالح الاقتصادية والظروف الاجتماعية للفلاحين أنفسهم. فحتى جول مجدل يقفز نحو هذا الاتجاه عندما يحاجج بأن الفلاحين الذين يتعرضون للتغيرات التي يحدثها تغلغل قوى السوق المدمرة هم الفئة الأكثر احتمالاً للاستجابة للحركات السياسية المنظمة التي تقدم حلولا لمشاكلهم ومعاناتهم الناتجة عن الآثار التخريبية لتغلغل الزراعة التجارية. ولكن لا يوجد هناك سبب للافتراض والقول بأن الفلاحين في المجتمعات ذات البنى التقليدية لم يتعرضوا ويختبروا الحرمان والفقر والاستغلال الطبقي وعدم الأمان السياسي. فلا سبب وجيه يدعو الحركات الثورية المنظمة عندما تكون على الساحة أن تتوجه إلى جميع فئات الفلاحين بما فيهم الفلاحين التقليديين. وهذا بالفعل ما قام به الحزب الشيوعي في فيتنام في المناطق الجبلية النائية عندما عبأ الأقليات العرقية، الفلاحين والسادة معا عن طريق الضرب على الوتر الحساس المتمثل بمخاوف الاستغلال الاثني في شمال فيتنام. فلقد قاموا بتعبئة الفلاحين عندما خلفوا الفرنسيين في تلك المناطق. وفي جنوب فيتنام فقد قاموا بتعبئة الفلاحين بما فيهم فئة الفلاحين المحاصصين عندما قاموا بتوزيع الأراضي والممتلكات الكبيرة عليهم وعندما قاموا بتأسيس الجمعيات المحلية لدعم معيشة الفلاحين والدفاع عن مكتسباتهم التي حصلوا عليها من عمليات إعادة التوزيع.

وفيما يخص حدوث أو نجاح الثورات القائمة على الفلاحين فان هذه المسالة تعتمد بصورة مباشره على التعبئة المباشرة للفلاحين من قبل الحركات الثورية، ثم على توفر واستمرارية مثل هذه الحركات التي تغدوا حاسمة جداً تماماً كما هي ظروف الفلاحين أنفسهم. وهنا نجد أن مجدل على حق في بيانه للعامل الحاسم الذي يحدد احتمالية مشاركة الفلاحين في الحركات الثورية يعتمد على ظهور قيادة ثورية ذات تنظيما محكما قادرا على استيعاب وتعبئة الفلاحين (Migdal, 1974: 9–10).

وربما كان السؤال الأهم حول ظهور التحالفات الثورية المأسسة بين الفلاحين من جهة والأحزاب السياسية من جهة ثانيه. وهذا لا يشير إلى الفلاحين أنفسهم بل للظروف التي تتيح وتمكن من نشأة الثورين المنظمين في إن يعملوا بحرية وفاعليه في المناطق الريفية. إن توافر التنظيمات الثورية في الريف التي تستطيع أن تنظم نفسها، وأن تعمل تحت ظل ظروف آمنة نسبياً هو شرط ضروري لنجاح الثورات خاصه عندما يستجيب التنظيم لمطالب وحاجات ومشاكل الفلاحين. فبالنسبة لجول مجدل فإن الثورة الفلاحين والتنظيم الثوري هما الفاعلان الأساسيان في الصراع من اجل عبور الفجوه بين الفلاحين والدولة. وبوصولنا إلى هذه النقطة البعيدة عن الفلاحين أنفسهم (أي مسالة التنظيم

الثوري) فلا بد الآن من مناقشة مسالة تغلغل الرأسمالية الإمبريالية في الريف ومناطق بلدان العالم الثالث لنرى كيف تؤثر عمليه التغلغل الرأسمالي هذه على الثورات الفلاحية.

٤- هل تخلق الرأسمالية الإمبريالية الظروف لاندلاع الثورات الفلاحية، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف؟

في كتاب الجذور الاجتماعية يوضح مور ثورات الفلاحين عن طريق فحص الشروط والظروف الاجتماعية والسياسية التي تقود إلى ثوراتهم. ثم كيف أنه في عملية التحديث ذاتها فإن درجات مختلفة وأنماطاً متعددة من الزراعة التجارية تعزز أو تثبط إمكانيات الفلاحين الثورية ضد الطبقات المالكة العليا. ومثل مور فإن كل من وولف ومجدل وبيج يحاولون الوصول إلى تعميمات على صعيد الأبنية الكبرى، وكذلك حول الظروف التاريخية التي تدفع الثورات على أساس فلاحي. ومع ذلك، وفي الوقت الذي يرى فيه مور أن السياق والمحتوى المناسب يتكون من مجموعة من دول ذات بنى زراعية تتعرض لعمليات تجيير Commercialization، فإن الإطار والمحتوى الكلي التاريخي Macro-Mistorical بالنسبة لوولف ومجدل وبيج هو الإطار العالمي وليس العلاقات بين الدول على الصعيد القومي. وبطريقة أو بأخرى فإن كل واحداً من هؤلاء الدارسين يرى أن الرأسمالية الإمبريالية الغربية عامل دافع للثورات الفلاحية. هذا ولا توجد فروق جوهرية في هذا المضمار بينهم.

فأريك وولف يرى أن "ثورات الفلاحين في القرن العشرين لم تعد مجرد استجابة بسيطة للمشكلات المحلية، فهي ردود فعل على إعادة الموضعة الاجتماعية التي أطلقت عنانها التغيرات المجتمعية الشاملة، وأن عامل التغير "هو توسع وانتشار ظاهرة فريدة هي: توسع وانتشار نظام ثقافي خاص عنيت الرأسمالية الشمال أطلسية (وولف، ١٩٧٧: ٢٦٩)، ويرى وولف أن انتشار الرأسمالية الشمال أطلسية كان لها نتائج تخريبية على المجتمعات ما قبل الرأسمالية فقبل اجتياح الرأسمالية كان التكافل الاجتماعي يعتمد على توازن تحويلات الفوائض الفلاحية إلى العامل ومنح الفلاح حدا أدنى من الضمان، وأن الرأسمالية بإلغائها هذه الحماية التي هي العرف الذي يضمن للفلاح حداً أدنى من المعيشة، عرض وضع هذه الموارد باعتبارها أشياء مخصصة للبيع والشراء للخطر وذلك الحد الأدنى من التوازن. يضاف إلى ذلك "أن ظهور الرأسمالية تكشف عن نتيجة أخرى لا تقل خطراً عن النتيجة السابقة؛ ذلك أنه سبب أزمة في ممارسة السلطة، فلقد خلق انتشار السوق علاقات أكثر استغلالية من العلاقات السابقة بين الفلاحين وسادتهم التقليديين سواءً كان هؤلاء هم شيوخ القبائل أو المندرين وسادة الأرض. ولقد خلقت الرأسمالية أنماطا جديدة من الصفوات-الرواد، التجار المقرضون والوسطاء السياسيون، والمثقفون والمهنيون، وفي هذا الوضع الانتقالي المتفكك فإن الثورات الفلاحية غالباً ما تحدث. وهكذا فإن الثورات بالنسبة إلى وولف هي حل محتمل للأوضاع الاجتماعية المخربة التي خلقتها الرأسمالية بالنسبة للفلاحين والصفوات (وولف، ١٩٧٧: ٢٦٩-٢٧٤).

أما مجدل فلا يختلف كثيراً عن وولف في نظرته لتأثير الرأسمالية على الثورات الفلاحية، إلا أن هناك اختلافين بينهما: الأول هو أن وولف يركز على المجتمع ككل بينما يركز مجدل على القرى الفلاحية. وحجة مجدل الأساسية هي أن الفلاحين في القرن العشرين في العالم الثالث قد تعرضوا للتأثيرات الممزقة للتحولات الاقتصادية التي أدت إليها الرأسمالية على الصعيد الاقتصادي وفي نظرات الناس، حيث تحولوا من الاقتصاد الاكتفائي ذي العلاقات الاجتماعية الترابطية الى الارتباط بعلاقات السوق الخارجية

والعمل المأجور. والأكثر إثارة للاهتمام بين وولف ومجدل وبيج هي طريقة تفكيرهم المشتركة حول دور الرأسمالية الإمبريالية في الثورات ذات الطابع الفلاحي. وبالرغم من اختلافاتهم العديدة فإن الثلاثة يركزون على دور الإمبريالية التجاري وتأثيره على المجتمعات الريفية وحياة الفلاحين. وهذا التأكيد على الزراعة الرأسمالية ينتهي إلى نفس النتيجة التي توصل إليها بارنغتون مور بخصوص الرأسمالية التجارية المطورة محلياً (كما يصفها مور) أو المفروضة من الخارج كما يرى مجدل وولف وبيج بخصوص دول العالم الثالث، فالتجارة الزراعية الرأسمالية تعزز الثورات الفلاحية وتقوي إمكانية حدوثها.

الخاتمة

يقول مور في الجذور الاجتماعية أنه من الضروري أن ننظر للمجتمع بكلية. فالاتجاه الكلي الشمولي مسألة ضرورية لا غنى عنها في دراسة الثورات. وهذه النظرة الشمولية تشمل النظر إلى كل من الدول والطبقات والبني والعلاقات الاقتصادية الانتقالية والعلاقات العسكرية. وهنا ومن بين جميع الدراسين الذين تناولنا دراساتهم فيما يخص الثورات الفلاحية، فإن واحداً منهم فقط هو أريك وولف هو الأقرب إلى المنهج الشمولي الكلي في التحليل.

ومنذ مور وولف أصبح هناك توجهاً بين الدارسين يتمثل بشكل ضيق بالتركيز على الاقتصاد الفلاحي الزراعي باحثين عن تعميمات نظرية حول الفلاحين انطلاقا من ذلك المستوى التحليلي الضيق. وتوجد فائدة تم تعلمها عن العلاقات الطبقية الزراعية والمجتمعية الفلاحية. لكن تفسيراً مترابطاً لانخراط الفلاحين في الثورات بدءاً بالثورة الفرنسية وانتهاءً بالحركات الوطنية ضد الاستعمار في منتصف القرن العشرين لم ينجز بعد ولا شك أن مثل هذا التفسير يمكن تطويره فقط بالارتباط مع الأشكال الأخرى من التفسيرات لحركات الاحتجاج الفلاحي وغيابها أو فشلها في مختلف الحقب من تاريخ العالم. ويجب أن نضع في اعتبارنا الحقيقة الأساسية التالية: أنه من خلال تواجد الفلاحين عبر القرون من قديم الزمن حتى العصور الحديثة فإن أشكال الثورات لا زالت مفتوحة أمام الفلاحين.

Abstract
Theories of Modern Peasant Revolutions A comparative study
By Rafe Al-Khuraisheh

This paper is an attempt at a comparative analysis of the views of B. Moore, E. wolf, J. Migdal, Theda Skocpal, J. Paige and J. Scott in modern peasant revolution. We shall review and evaluate what these scholars have to say in answer to four major questions: (1) What is the social structure and the historical situation that leads the peasant to revolution? (2) Which peasant are most prone to revolution, and Why?, (3) What roles the political and military organization play in peasant – based revolution? (4) Does Capitalist imperialism create conditions for peasant – based revolution- and if so, How?

These organizing question will take us to the heart of the basic arguments of the five authors – and into the thick of the often sharp differences among them.

قائمة المراجع

المراجع العربية:

غير تيد روبرت (٢٠٠٤)، لماذا يتمرد البشر، ترجمة ونشر مركز الخليج للأبحاث، الامارات العربية المتحدة.

كرو جرهام (٢٠٠٢)، علم الاجتماع المقارن والنظريات الاجتماعية، ترجمة جمال أبو شنب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.

مور بارنغتون (د، ت)، الجذور الاجتماعية للديكتاتورية والديمقراطية، ترجمة جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

وولف أريك (١٩٧٧)، الحروب الفلاحية في القرن العشرين، ترجمة أكرم الرفاعي، دار الحقيقة، بيروت، لبنان.

المراجع الأجنبية:

Migdal Joel (1974) Peasant, Politics and Revolution: Pressure Towards Political and Social Change in The Third World, Princeton, N. J: Princeton University Press.

Paige Jeffery M. (1975) Agrarian Revolution: Social Movements and Export Agriculture in Undeveloped world, Free press, New York.

Scott James (1976) The Moral Economy of the Peasant, New-Haven, Yale University Press.

Skocpol Theda (1977) States and Revolution: A comparative Analysis of France, Russia and China, Cambridge University Press.

Smith Dennis (1984) Discovering Facts and Values the Historical Sociology of Barrington Moore in Theda Skocpol (ed.) Vision and Method in Historical Sociology, Cambridge University Press.

Tilly Charles (1976) The Vendee, Cambridge, Mass, Harvard University Press.

Tilly Charles, Louise Tilly and Richards Tilly (1975) The Rebellious Century (1930-1930). Cambridge, Mass: Harvard University Press.